د. عصام البشير: تجديد المنهج في تقويم التراث بين الإبداع والتقليد

بسم الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي بنعمته التي تتم الصالحات، وأزكى صلوات الله وتسليماته على نبي الرحمة وإمام الهدى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. أحيي جمعكم الكريم مبتدئاً ومستهلاً بمعالي الأستاذ الدكتور: محمد غورماز الحبيب العالم المفكر الفقيه الأصولي والمقاصدي والمدقق حفظه الله، ونفع به وأمتع به، وتقبل عمله في الصالحات، وزاده توفيقاً على مراه الفلاة وجزاه الله خير الجزاء على هذه الدعوة الكريمة التي نلتقي فيها بالفضلاء الأكارم. ولكم جميعاً التحية والتجلة. وكما قال الشاعر العربي:

"لقد رَسَخَتْ في القلب منكم مودةٌ كما رسخت في الراحتين الأصابعُ".

موضوع حديثنا هذا اليوم حول التجديد المنهجي في تقويم التراث من التقليد إلى الإبداع والاتباع. وبداية يجب أن نحرر المفاهيم والمصطلحات التي في سياق عنوان هذا الموضوع الهام الواسع المتشعب كثير الجوانب.

أول ما أبدأ به هو تحرير مفهوم كلمة التجديد. التجديد في لغة العرب: جدد الشيء تجدداً أو تجديداً صيّر القديم جديداً، وهذا يعني أن التجديد يقتضي أن ثمة شيئاً كان قائماً وتراكم عليه عبر العصور والزمان أتربة وغبار حجبت جدّته وصفاءه ونقاءه فحينما نقول تجديد هذا البناء ذلك يعني أنه ليس هدماً له من أصوله إنما عودة به إلى صفاء جِدّته. لم ترد هذه الكلمة بلفظها في كتاب الله تعالى ولكنها وردت في سياق السنة النبوية في جملة أحاديث أشهرها حديث أبي داود الذي رواه في السنن في كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المئة: "إن الله يبعث على رأس كل مئة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها" رواه البيهقيّ في السنن والأخبار والحاكم في المستدرك. وعدّه العلماء من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام وتلقاه أهل العلم بالقَبول. وهنالك بعض أحاديث منها حديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي رواه الحاكم في المستدرك فيه إشارة أيضاً: "إن الإيمان ليَخْلَقُ في جوف أحدكم كما يَخْلَقُ الثوب فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم" وهناك حديث رواه الإمام أحمد في المسند: " جددوا ايمانكم. قالوا كيف نجدد إيماننا؟ قال أكثروا من قول لا إله إلا الله" وغير ذلك من أحاديث ورد فيها لفظ التجديد.

ولكن الحديث الذي هو مدار سيرنا هو حديث التجديد لأبي داود. وجعل السيوطي له منظومة كبيرة شرح فيها معنى الحديث وضوابط المجدد ومن هم هؤلاء المجددون، وإن كان نحا إلى تمذهب التجديد أي حصره في

مذهب واحد وهو مذهب الإمام الشافعي رحمه الله. وقصر التجديد على دائرتين هما دائرة العقيدة ودائرة الفقه. ولا شك أن التجديد أوسع رحابة وأشمل دلالة من قصرة على هاتيّ الميدانين.

التجديد هو سنة من سنن الحياة. سنة من سنن الشرع والخلق؛ ولهذا يقولون الماء الراكد يأسن، ومن لم يتجدد يتبدد ومن لم يتقدم يتقادم ومن لم يتطور يتدهور. ولا أود أن أقف كثيراً في ثنايا حديث التجديد؛ لأن مقامه آخر، ولكن أشير إشارات عجلى في أن التجديد معنى أوسع من أن يقتصر على أن يكون المجدّدُ فرداً، كما ذهب السيوطي: "وكونه فرداً هو المشهورُ... قد نطق الحديثُ والجمهورُ" يمكن أن يتعدد المصلحون في القرن الواحد. والمعنى الأقرب لعصرنا وزماننا أن يكون التجديد إحياءً وانبعاثاً ونهضةً ويقظةً وصحوة تشارك الأمة بكل فعالياتها فيها؛ لأن لفظة "من يجدد لها" كما تَصدُق على الفرد تصدق على الجماعة. ومن هنا بدل أن يسأل الفرد "من المجدد في عصرنا؟" يسأل "ما دوري في حركة التجديد والإحياء والبعث.

وأما المقصود بتقويم التراث، فالأصل في كلمة التقويم قوّم الشيء أي جعله قائماً. أي عدله من انحراف وقومة في مسيرته كما قال الله تعالى: " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم". أما لفظ التراث فالمقصود بالتراث في لغة العرب أن التراث هو بقية الشيء وهو ما يخلفه الرجل من ميراث لأهله وذوي قرابته ولكن القرآن استعمل هذا بمعنى أوسع ليس الذي يخلفه لورثته هو مال كما جاء في الحديث:" لك مآبي ولك تراثي" إنما الميراث أوسع وأعظم من الميراث المالي هو الميراث المعنوي الميراث الذي بعث الله تعالى به الرُسل أنزل به الكتب وشرّع به الشرائع ولذلك قال الله تعالى: "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا" والنبي صلى الله عليه وسلم أشار بقوله:" إنّا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة"؛ ولهذا فميراث الأنبياء هو العلم النافع والعمل الصالح. فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا علماً نافعاً من أخذه أخذه بحظٍ وافر. وهذا من حيث الدلالة اللغوية والمفهومية بشكل عام.

ما نقصده بالتراث هنا يعني ما خلفه عقل أسلافنا الذين مضوا من معارف وعلوم نظرية أو خبرات عملية ضمن كسبها من التدين. وهنا نحن نفرق بين أمرين: بين الدين والتدين. الدين هو وحي الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم والمتمثل في مصدرية الكتاب المتلوّ المتعبد بتلاوته ووحي السنة بيان هذا الكتاب. إنما التدين فهو من كسب البشر فهماً وممارسةً. فإذا ميراث أسلافنا الصالحين وميراث الأمة هو كسبها من التدين على صعيد التصورات وعلى صعيد التصرفات. على صعيد النظر التجريدي وعلى صعيد

الفكر وعلى صعيد العمل. كسب الأمة من هذا التدين فكراً وممارسةً هذا هو الذي نسميه التراث. وله بالطبع خصائص سنتعرض لها. وكيف سنتعامل معه. وما هي اتجاهات تعامل الناس مع هذا التراث.

هذه مفردات أحببت أن أستهل بها المحاضرة عن التجديد يقصد به إحياء من درس من معالم الدين وانطمس من شموس الحق أي أن التجديد عودةٌ إلى الأصل. فإن كان هذا الأصل قد اعتراه عبر الزمن وعبر العصور ما حجب جدته ونقاءه وصفاءه فإن التجديد ليس هدماً للأصول ولا نقداً للثوابت ولا نسفاً للمسلمات وإنما هو عودة لهذا الشيء الذي تراكم عليه عبر الزمن غبارٌ حجب نقاء عودته به إلى الأصل.

إذا كان التراث كما أشرنا إليه أنه كل ما خلفه السلف من آثار علمية ومعرفية سواء كانت مادية كالكتب أو كانت معنوية: كالآراء والأفكار والأنماط والعادات وغير ذلك مما يعتبر أمراً نفيساً. كل هذا قد اكتسب أهمية حضارية في تاريخ المسلمين ونحن هنا لا نتحدث عن التراث الإنساني بالإطلاق إنما نتحدث عن التراث الإسلامي وهذا التراث سأتناوله في ثلاثة جوانب: الجانب الأول المتعلق بخصائص هذا التراث، الجانب الثاني متعلق باتجاهات الناس في التعامل مع هذا التراث الإسلامي المعرفي، وأخيراً سأتناول آفاق التجديد في تقويم التراث ونقله من دائرة التقليد إلى دائرة الإبداع.

❖ المحور الأول: خصائص التراث الإسلامي

أولاً: التراث الإسلامي موصول بالهدي الدينيّ الربانيّ النبويّ. هذا التراث ليس مقطوع الرحم من المصدرية والمرجعية التي يستقي منها المسلمون هدايتهم واستقامة منهجهم وأخلاقهم هو متلبس بالانتماء إلى هذه المرجعية والمصدرية المتمثلة في الوحي المتلوّ المتعبد بتلاوته وبيان هذه الوحي المتمثل في السنة. إن هذا التراث لم ينشأ بفراغ، إنما نشأ في رحاب هذا الهديّ الربانيّ المبارك مصدراً ومرجعاً وتمثلاً.

ثانياً: استغراقه وشموله المعرفي. أنه انداح في دوائر كثيرة استوعبت مظاهر العقيدة ومظاهر التعبد ومظاهر العمل ومظاهر العمران ومظاهر الحضارة. أي انه اتسم بالشمول ولذلك لا ينبغي أن نتعامل معه على نحو التبعيض.

ثالثاً: امتداد هذا التراث في الزمان والمكان. لا ينحصر في بقعة بعينها ولا ينحصر في إطار زمنيّ بعينه، فهو عابرٌ للزمان والمكان. إن من خصوصيات هذه الأمة أنه لم يكن لها مركز حضاري واحد فقد تعددت فيها المراكز الحضارية من المدينة المنورة إلى دمشق إلى بغداد إلى خراسان إلى غرناطة وغيرها من المراكز. ولم تقتصر على جنس من الأجناس حيث كان في هذا الميدان الحضاري والواحد العرب والحبش

والترك والهند والفرس والمغول. كل هذا جعل لهذا التراث فرصة الانديا‌ح على الامتداد الزماني والامتداد المكاني.

رابعاً: الانضباط المنهجي؛ لأنه تأسس على قواعد وعلى أصول وعلى مدركات شرعية وعقلية زاوجت بين صحة النقل وصراحة العقل واستخرجت من ذلك أنماطاً للعلوم والمعارف رسختها في شتى التخصصات المعرفية المختلفة. وكما أضاف الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه: اتجاهات منهج تقويم التراث أشار أنه ارتبط وزاوج بين القيم الأخلاقية وبين الواقع وبين القيم الروحية وبين العلم وبين الحوارية وبين الصواب. هذا التزاوج شكل عمقاً في صلة التراث بعضه ببعض في هذه الزوايا فالقيم الأخلاقية لم تكن ممتدة عن الواقع والقيم الروحية لم تكن منفصلة عن العلم ودوائر الحوار التي تنوعت في الأفكار والمذاهب والآراء ما شكل عامل ثراء وخصوبة وإضافة معرفية في مسيرة هذه الأمة.

خامساً: تصويب النظر إلى الواقع كما كانت له قدرة على محاولة استشراف المستقبل قدر المستطاع.

❖ **المحور الثاني: اتجاهات النظر إلى هذا التراث**

وقف الناس أمام هذا التراث وقفات متعارضة ومتباينة كما ذكر الدكتور طه عبد الرحمن أن الناس توجهوا إلى اتجاه المسخ أو اتجاه الفسخ او اتجاه النسخ ويمكن أن نعبر عن هذا بتعبيرات التقديس والتبخيس والتدنيس.

الاتجاه الأول: هو التقديس والجمود، وتقوم على فكرة أن ما انتهى إليه عقل أسلافنا فقد قال كلمة الفصل في قضايا أمتنا كلها. وأن "ليس بالإمكان أبدع مما كان" وما ترك الأول للآخر شيئاً. وهذا تيار الركون القديم بعجره وبجره. وكما أشرنا سابقاً أن التراث إنما هو التدين لا الدين بعينه ولا يدخل فيه مستوى الوحيّ إنما نتحدث عن قسم آراء وتجارب وأفكار البشر الذي أسميناه بالتدين. وهذا الجزء البشري من اجتهاد البشر ارتفع النظر إليه من التقدير إلى التقديس ثم الجمود عليه باعتبار أن كلمة الفصل عنده. وهذا لا شك أنه يمثل انحرافاً منهجاً في التعامل مع جهد البشر.

الاتجاه الثاني هو التبخيس والجحود. وهو اتجاه يناقض ويضاد اتجاه التقديس تماماً. ويعني القطيعة مع هذا الموروث الحضاري لأمتنا فكراً وممارسةً. أن نُهيل عليه التراب وأن نجعل القطيعة بائنةً بيننا وبينه وأن نجعل الرحم مقطوعاً كذلك. ولهذا الاتجاه مدارس وأفكار. وهنالك من اعتبر أن الانتماء إليه داعٍ إلى التخلف وإلى ركون الأمة في قعر الظلمات.

أما التيار الثالث فهو تيار التقدير، أي أنه لا جمود ولا جحود. لا تبخيس ولا تدنيس ولا تقديس. وهذا التيار التقديري يقوم على جملة مبادئ:

المبدأ الأول: هو مبدأ التراكم والتكامل المعرفي. أننا أمة تراكمية نبني اللاحق على جهد السابق ونقدر من بعد ذلك كسبه وإبداعه وإضافته.

المبدأ الثاني: الشعار الذي يرفعه هذا الاتجاه هو التقدير كما قال الله تعالى: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم".

ثالث مبدأ هو أن هذا الكسب البشري مهما تعاظم أثره وتعدد إنجازه وتقدمت خطواته فهو لا يعدوا أن يكون كسباً بشرياً يطرأ عليه ما يطرأ على سائر الحادثات من البلى والنقص والقصور فليس له قداسة النصوص وليس له عصمة الوحي الثابت وليس له صفة الإلزام. إنما هو يقبل الاجتهاد ويقبل الاستدراك ويقبل التنقيح ويقبل الإضافة عليه. قال عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري "لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فهُدِيتَ فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل" والشافعي لما ألف كتاب الرسالة قال:" في هذا الكتاب ما أنا راجع عنه إما في حياتي أو بعد مماتي؛ لأن الله تعالى يقول:" ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا" ولهذا قال:" اجتهادي صواب يحتمل الخطأ واجتهاد غيري خطأ يحتمل الصواب" وقيل للإمام لأبي حنيفة: "أهذا الذي ارتأيته أهذا هو الحق الذي لا باطل معه؟" قال:" لعله الباطل الذي لا حق معه". إذاً نحن نؤمن بأن هذا الاجتهاد البشري لا إلزام فيه، يقبل الاستدراك، التقويم، التنقيح، التدقيق والتحقيق ويقبل كذلك الإضافة. وهذا التقدير ناشئ من أن هذه الأمة بجهدها التراكمي قد أضافت كسباً معرفياً مقدراً وليس من عاقلٍ يقبل لأمةٍ ما أن تهيل على كل هذا الكسب المعرفي بشقيه العملي والنظري التراب. كمان أن الاستناد إليه واعتباره الكلمة الفصل هذا يرد عليه بقول ابن مالك في أول كتاب التسهيل في النحو: "وإذا كانت العلوم منحاً إلهية ومواهب اختصاصية فغير مُستبعدٍ أن يدّخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. أعوذ بالله من حسد يسد باب الإنصاف ويصد عن جميل الأوصاف" والقرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى:" ثلة من الأولين وثلة من الآخرين" ولذلك قال ابن عبد البر في كتاب بيان العلم:" ليس أضر على العلم من قولهم ما ترك الأول للآخر؟، بل الصواب عندنا كم ترك الأول للآخر؟" كذلك لا نقول:" ليس في الإمكان أبدع مما كان" إنما نقول:" في الإمكان أبدع مما كان".

❖ **المحور الثالث: المنهج الأمثل في التعامل مع التراث**

حتى يكون التجديد رائدٌ لنا بعيداً عن التقليد هذا الأمر يقتضي جملة أمور:

1- أن نلج إلى التراث ونحن متحررون من داء العصبية. عصبية الانتماء (المذهبي، الفكري، الدعوي، الحركي، الساسي) الذي يحجبنا عن المضمون والعدل والإنصاف في التعامل مع تراثنا. فمثلاً في باب التجديد نلاحظ أن في الحديث النبوي يقول النبي صلى الله عليه وسلم "يجدد لها دينها" سعة شمول التجديد وميدانه. وحينما جيءَ بالحديث عن من هو المجدد؟ هنالك رواية ذكرها ابن السكّي وهي لم تصح: "المجدد منّا آل البيت" نظرنا فلما لم نجد من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم مجدداً تأولنا الحديث. قلنا إنه بحق مذهب من تمذهب بمذهب الشافعي. فعد المجدد على رأس المئة الثالثة أبا العباس ابن سريّ ثم جاء السيوطي في منظومته الرابعة والخامسة بنفس زمانه كلهم من مذهب الشافعي، أي أنه حصر جميع المجددين من بعد الشافعي إلى زمانه كلهم من المذهب الشافعي. فجيب التحرر من داء العصبية المقيت الذي يحجب الإنسان عن سعة الرؤية وعن إنصاف الموقف وعن عدالة المنهج في التعامل مع هذا التراث.

2- الوقوف على مناهج هذا التراث لا على جزئيات مسائله. هنا كل من يبدأ بالجزئيات ويقتصر التراث بجزئيات بعينها كما رد الدكتور طه على الجابري في سياقاته حيث حصر التراث في الجزئية الفلسفية. يجب النظر والاقتراب من هذا التراث عبر المنهج الشامل المستوعب وليس من خلال التجزئة والتبعيض. إذاً لا يجب النظر فقط من خلال جزئيات المسائل التي تعاطاها علماؤنا وفقهاؤنا كأثر من تحديات الواقع وإشكالات العصر وجعلها أصلاً.

3- التعامل مع التراث على قاعدة التخير والاصطفاء بعد التحصيل والارتواء. أن يتخير الإنسان ويصطفي درره وجواهره ونفيس معدنه ولكن بعد أن يرتوي منه وأن يحصل قاعدة معرفية عن هذا التراث. فالذي لا يعرف منه إلا نثارات أشياء قليلة وجزئيات هنا وهناك ليس هو الإنسان الجدير والمؤهل ليتخير ويصطفي، إنما يتخير ويصطفي من تمكن من هذا التراث فهماً وعملاً ونظراً وملك من أدوات تعينه من أن يتخير ويصطفي.

4- التراث يحتاج إلى تقويم من خلال تدقيق وتنقيح وتنقية تنقله من الدخيل إلى الأصيل. إن نشأة العلوم وطبيعة المناهج التي سلكها علماؤنا بعد أن قررنا نفي صفة الإلزام في الاجتهاد البشري المجرد منها اقتضى مثل هذا السعي. وهنا نحن نفرق بين العقيدة وبين كتب العقيدة. حيث إن بعض كتب العقيدة

تناولت قضايا لا علاقة لها بالعقيدة مثل مسألة المسح على الخفين ومسائل تاريخية يتصحبها بعض الناس إلى زماننا كشرط إلى العقيدة وفي ترسيخ العقيدة وبنائها في النفوس. ومثلها في علم التفسير وكيف كدرت الإسرائيليات صفاءه وكذلك الأحاديث الموضوعة في الحديث. أقول: إن هناك شوائب كدرت صفاء هذه العلوم يجب أن تُنقح وأن نجرد العلوم من كل الشوائب لتُقدم صافية من كل شوب.

5- التفريق بين الثابت الأصيل وبين الاجتهاد المتغير. الثوابت التي ينبغي أن نحافظ عليها كالعقيدة والشعائر التعبدية والمقاصد الكلية والقيم الأخلاقية والأحكام القطعية وبين المتغيرات من الأحكام الاجتهادية وأعراف وعادات لم ينشئها الشرع.

6- إحسان قراءة التراث والنظر في مراعاة السياق، السياق الظرفي وسياق الزمان وسياق المكان. عدم مراعاة السياق يحجب الانسان عن الرؤية الصحيحة لفهم تلك المسائل وما تحتاج إلى تطوير لها.

7- الابتسار والاختزال. عدم اقتصار قضايا العقيدة في الفقه مثلاً.

8- الاعتبار والاستثمار، هنالك قضايا ومشكلات وجدت في عصور تحتاج أن نعتبر بها وأن نتعظ بها. والاستثمار بأن نحن توظيف هذا التراث في البناء عليه.

9- تجديد أدوات وآليات التراث. لا يجب الوقوف على ذات الأشكال والأنماط التي وقف عليها أسلافنا إنما يجب التفريق بين الثابت والمتغير وأن يعتري الآليات تجديد وتطوير. مثلاً فيما يتعلق في السياسة الشرعية ومسألة بقاء الخليفة مدى الحياة. ينسون أن الحكم عبارة عن علاقة تعاقدية الأمة من جهة والحاكم من جهة أخرى. فإذا ارتضت الأمة في عقد بيعتها أن تقيد الحاكم بدورة ودورتين فهذا حق الأمة. والمسلمون على شروطهم إلا شرط أحل حراماً أو حرم حلالاً. فلا يأتي أحد ويقول إنه وجد أن بالتاريخ الإسلامي الحاكم على مدى الحياة. نقول: إن ما وقع في التاريخ مشروعية ولم يفد الإلزام. يفيد أن ما حدث كان جائزاً لا أكثر.

10- الإضافة والإثراء لهذا التراث من حيث المضمون والآليات.

11- العمل على تقريب التراث من حيث المضمون وعلى تيسير التراث من حيث اللغة المكتوبة حتى تواكب الأجيال الحديثة.

أود أن أختم بالعودة إلى عنوان المحاضرة بالقول: إن التجديد هو الصيرورة وأنه يلخص "الاتباع والإبداع". الاتباع يعني تحصيل القدوة وبعض الناس يفهمون هذا المعنى فهماً خاطئاً كالانتماء إلى السلف الصالح ونحن أمرنا أن نتأسى بهم. وهنا يجب لفت الانتباه إلى أن التأسي بهم يكون بكليات مناهجهم لا في جزئيات

مسائلهم لأنه مقرر عند المحققين أن الفتوى تتغير بتغير الحالات الأربع الزمان والمكان والعرف والحال. والتأسي بهم في مجموع منهجهم القائم على ربط العلم النافع بالعمل الصالح. التأسي بهم بالحديث عن القضايا المعاصرة التحديات التي تشكل واقعنا. فيجب أن نوازن بين الاتباع لهذا الفهم الواسع لمعنى التأسي والإبداع. والإبداع هو العمل من غير مثال سابق. وبهذا فإن الإبداع والاتباع منظومتان لوعاءٍ اسمه التجديد والتجديد إحياء لمن درس من معالم الدين وانطمس من شموس الحق. والتجديد في منهج التراث يكون بضبط المفاهيم والمعاني والمصطلحات ويكون في المضامين والمناهج ويكون كذلك في الأدوات والآليات.

أكتفي بهذا القدر وشكر الله لمعالي أستاذنا الدكتور محمد غورماز على هذه الاستضافة الكريمة ولأحبابنا وجزاكم الله خيراً وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.